المشرق

شهيد الوحدة الكنسية

في الاقطار الصقلبية

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

وقع في ١٢ تشرين الثاني من السنة الماضية تذكار المئة الثالثة لاستشهاد احد جهابذة الكنيسة الشرقيَّة الصقليَّة القديس يوشافاط الراهب الباسيلي ورئيس اساقفة پولوسك. فبهذه المناسبة اصدر الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر براءة وجَّهها الى سائر المعمور الكاثوليكي ذكر فيها خلاصة اعمال ذلك البطل المقدام الذي ضحَّى حياته في سبيل الوحدة الكنسيَّة فكان دمهُ زريعة نامية ثبَّتت قسماً كبيراً من الشعب الصقليّ الشرقي في طاعة الكرسي الرسولي في القرنين السابع عشر والثامن عشر بل صبرت على عهد قياصرة روسيَّة على كلّ ما اصابها من الاضطهادات وهي لا تزال كحبَّة الحنطة التي ذكرها السيد المسيح والتي اذا ماتت تأتي بثمر كثير

وهذا الأمل الصالح هو الذي دعا الطيّب الذكر البابا بيوس التاسع الى تثبيت قداسة القديس يوشافاط سنة ١٨٦٨ . والبابا لاون الثالث عشر الى تمجيد رسولي الصقالبة القديسين كيرلُس ومثوديوس باقامة عيد سنوي لذكرهما في الكنيسة اللاتينيَّة . والبابا بيوس الحادي عشر المالك سعيدًا اليوم الى الاحتفال بيوبيل استشهاد القديس يوشافاط المنويّ . وهذا اليوبيل يتناول سنةً كاملة فينتهي في ١٢ تشرين الثاني من السنة الحاليَّة وقد اقيمت ولا تزال مواسم بهجة في رومية وپولونية احتفاءً بذكره . فرأينا

ان ندوّن على صفحات الشرق خلاصة اعمال ووفاة ذلك الرجل الفريد الذي شرّف وطنه باستشهاده وهو اوّل شرقيّ اعلنت الكنيسة الرومانيّة رسميًّا قداسته وفرضت على ابنائها ذكر عيده السنوي

نظر في احوال پولونية في القرن السادس عشر

بلغت پولونية في اواسط القرن السادس عشر اوج مجدها فانّ موقعها في حدود اوربّة المركزيّة وفي جوار الممالك البوزنطيّة بين التمدُّنين الغربي والشرقي اناطها مقامًا فريدًا فجعلها كالحلقة الذهبيّة توصل بين عناصر متباينة اصلًا ولغةً واخلاقًا لكنّها منتدبة في نظر الله الى الاتّحاد والتآخي وذلك بهمّة الشعب البولوني الجامع في دمه مزايا القطبَين

وكانت پولونية منذ خمسة اجيال سائرة في خطّة مستقيمة ساسها اوّلًا ملوك من العنصر المجري ذوو عدل وشهامة (٩٦٤—١٣٧٠) ثمّ خلفتهم سلالة جاجلُون الوطنيّة (١٣٧٠—١٥٧٢) فأولتهم من العزّ والمفاخر ما جعلهم في مقدّمة الدول. فبينما كانت روسيّة إمارةً منزوية في اطراف البلاد والمملكة البوزنطيّة تزيد كلّ يوم ضعفًا وفشلًا كان ملوك پولونية رافعين لواء الدين الكاثوليكي خاضعين لامام الاحبار واقفين بالمرصاد للبدع ليكفّوا عن بلادهم شرورها. وقد امتاز بينهم بالاصلاح والبر ملوكٌ نظمتهم الكنيسة في عداد اوليائها كالقديسين لادسلاس وكازمير

على انّ الشعب البولوني مع وحدة عنصره ودينه الكاثوليكي كان منقسمًا الى قسمين يكادان يتساويان عددًا ويتبعان طقسين مختلفين نريد بهما الطقس اللاتيني والطقس الشرقي كان لكل منهما كنائسه واكليروسه ورتبه الخاصّة

وكان سبب هذا الخلاف قد نشأ منذ ظهور النصرانيّة في تلك البلاد فان دعاتها اتوها في وقت واحد من جهة القسطنطينيّة ومن جهة رومية وكان المبشران من جهة بطريرك القسطنطينيّة القديسَين كيرلس وميثوديوس نصّرا قسمًا كبيرًا من اهل پولونية وبرخصة الحبرين الرومانيَّين ادريان ويوحنّا اشاعا بينهم الطقس البوزنطي منقولًا الى اللغة الصقليّة الوطنيّة على خلاف مَن نصّرهم من دُعاة رومية فانهم تشبّثوا باللغة اللاتينيّة وبالطقوس الرومانيّة وكان ملوك پولونية من جملتهم وبمساعيهم انضمّ قسمٌ كبير من اهل

ليتوانية الى الكنيسة اللاتينيَّة في القرن الرابع عشر

وقد بقي الاتفاق ووحدة الايمان بين اصحاب الطقسين زمناً طويلاً لولا انَّ بطاركة القسطنطينيَّة أبَوا نشروا راية العصيان على خلفاء هامة الرسل اخذوا يفرغون جهدهم في فصل الكنائس ذات الطقس الشرقي عن مركز الوحدة . على انَّ ملوك بولونية اخذوا حذرهم من ارباب الفساد وصانوا رعاياهم من الشقاق الى ان انقرضت الدولة الجاجلُونيَّة بوفاة سجسموندس الثاني سنة ١٥٧٢ فصارت امور الدولة في عهدة امير ترنسلفانية اتيان باتوري (١٥٧٥—١٥٧٨) الذي احسن التدبير كسلفائه واحترز من دسائس اليونان الى ان قامت بعدهُ دولةٌ اسوجيَّة مشبوهة بميلها الى المذهب البروتستاني فانتهز الروم والبروتستانت هذه الفرصة ليتسرَّبوا في انحاء بولونية ويزرعوا في الشعب بذور تعاليمهم . لكنَّ الاكليروس اللاتيني ورهبانهُ تصدَّوا لهم وردُّوهم خائبين عن القسم الخاضع لسلطتهم بخلاف التابعين للطقس الشرقي فانَّ رؤَاد البطريرك القسطنطيني اندفعوا بينهم كالسيل الجارف واخذوا يصورون لهم الطاعة للحبر الروماني كجحودٍ لدين اجدادهم ويسومون الطقس اللاتيني خسفاً . ومرَّ بهم البطريركان ارميا القسطنطيني ثمَّ يواكيم الانطاكي وغيرهما فجمعوا منهم الحسنات وبغَّضوهم الى تبعة الطقس الغربي حتى قامت بينهم المنازعات والمشاحنات على ساقٍ . وكان البروتستانت الوطنيين يعضدون الشرقيين الذين استنجدوا بالقوزاق وهم جيلٌ من الهمج ممَّن اعتادوا النهب والسلب وسفك الدماء

لكنَّ الله لم يهمل كنيستهُ فاقام بعض رجال الصلاح الذين دافعوا عن الايمان وردُّوا كثيرين من الضالين الى حظيرة الايمان وأثبتوا لهم صحَّة معتقد اجدادهم القديسين الذين لم يجدوا في الطقوس الشرقيَّة ما يبعدهم عن الرضوخ لأحكام الكرسي الروماني المقدَّس . وقد امضى نوَّاب كنيستهم الصقليَّة على صك الاتحاد في المجمع الفلورنتيني فجرى بموجبهِ اهل بولونية دون معارض

ومن هؤلاء المصامين القديس يوشافاط الذي نحن بصددهِ اختارهُ الله ليكون ركناً للاتحاد فيثبتهُ بقداسة حياتهِ ثمَّ بسفك دمهِ الكريم

حداثة القديس يوشافاط

وُلد يوشافاط في ڤلاديمير حاضرة ايالة ڤولينية من معاملات بولونية السنة ١٥٨٠

من اسرة كورنتزيوتس الشريفة فدُعي بالمعموديَّة يوحنَّا وكان ابواهُ غبريال ومارينا من ذوي التقى تابعين للطقس الشرقي الصقلبي خاضعين بسذاجة لكل رسومه. وجدت اُمُّهُ قلب طفلها مائلاً منذ نعومة اظفاره الى محبَّة ربهِ فبذرت فيهِ الزرع الجيد الذي لم يفسدهُ زوَان العدوّ. واذ حملتهُ يوماً الى الكنيسة وقع نظرهُ على صورة المصلوب فطلب الولد معناها فكشفت له سرّ فداء البشر واذا بسهم ناري خرج من قلب المخلص ونفذ في صدرهِ فاضطرم فؤادهُ منذ ذاك حبًّا فخر فاديهِ وودَّ لو يهرق هو ايضاً دمهُ في سبيلهِ. ولمَّا ترعرع اخذ يتردَّد الى بيت الله فيقضي فيهِ الساعات دون سأم ثمَّ تعلَّم كل رتب وفرائض الكنيسة الصقلبيَّة فجعل يتلوها كل يوم بمزيد الحرارة. واوحى اليهِ الله شرف الطهارة فرعاها بكل حرص وحاد عن كل ملاهي الاحداث لئلَّا تشوه نفسهُ شائبةٌ ما ونذر امام هيكل العذراء نذر العفَّة الدائمة فاصبح بكل سيرتهِ قدوةً لرفاقهِ بل للكهول والشيوخ الذين كانوا يأتون الكنيسة ليمتعوا نظرهم برؤيتهِ وتقاهُ

وكان احد الاساقفة قد فتح في موطنهِ مدرسة كبيرة فتخرَّج فيها على آداب بلاده واتقن اُصول لغتهِ الصقلبيَّة حتى برع فيها فشهد لهُ اساتذتهُ برقيهِ في العلوم كما اعلنوا بكمالهِ في الفضيلة. فسُرَّ اهلهُ بنجاحهِ وقصدوا ان يستعينوا بهِ لتجارتهم فارسلوه الى مدينة ثلنا عاصمة البلاد الى احد كبار التاجرين ليتقن في محلهِ المعاملات التجارية

فلقي المدينة عند وصولهِ في ارتباك واختلاط قد قام على الصقالبة المتحدين قوم من الاكليروس الوطني والرومي يناصرهم بعض اعيان البلد غايتهم ان يعزّزوا الحزب المنشقّ عن رومية ويستولوا على كنائسهم واموالهم. فلم يجسر احد ان يعارضهم حتى كاد ان يتمّ لهم متمنَّاهم فيُجرّت الكنائس وخُرقت حرمة الآداب وتعدَّدت المظالم والمآثم التي عجز عن كبحها ارباب الامر

فبقي يوشافاط محتاراً في امرهِ اذ لم يخامرهُ شكٌّ قبل ذلك في صحَّة معتقدهِ فاتاهُ بعض الشبَّان وعرضوا عليهِ الانتماء الى الحزب الثائر على السلطة البابويَّة فوعدهم بان يجيبهم بعد فحص الامر على ما يلهمهُ ضميرهُ فلمَّا التجأ الى الصلاة انار الله عقلهُ وشعر انهُ مدعوّ بالهام الهي الى توثيق عرى الاتحاد بين الكنيسة الصقلبيَّة المعروفة ايضاً بالروثنيَّة والكنيسة الرومانيَّة. فردَّ دعوة اولئك الاغرار وقصد المدرسة الجامعة

التي كان الآباء اليسوعيّون شيّدوها في ثلنا واجتمع ببعض رهبانها وعلى الخصوص برجلين من افاضلها الاب فبريسي والاب غروزفسكي طلب منهما ان يرشداه الى ما يفيده الدفاع عن الايمان الكاثوليكي فوجد فيهما خير مساعد على تحقيق نيّاته الشريفة فدرس عليهما الفلسفة واوقفاه على ما كتبه الآباء اليونان وما ورد في المجامع والتواريخ عن وحدة الكنيسة ورئاسة الحبر الروماني

فشكر يوحنا معلّميه وعرف ما للرهبانيّة اليسوعيّة من الفضل على بلاده فاحبّها حبًّا عظيماً الى آخر نفس من حياته وكان يلتجئ الى ابنائها في سائر اموره لاسيما عند ما رأى غيرتهم على حفظ الطقوس الشرقيّة واهتمامهم بترقية المنتمين اليها وبنهضة اكليروسها من خموله وانحطاطه. ومن اشتهروا بينهم في خدمة البولونيين الشرقيين اميرُ خطباء وطنه الاب بطرس سكارغا الذائع الشهرة والاب انطون بوسفين سفير الحبر الاعظم الى قياصرة روسيّة

وكان مطرونوليت كياف يُدعى هيباس بوتيه رجلًا مرتدًّا عن البروتستانيّة كبير الهمّة في حفظ الاتحاد بين كنيسة بولونية الشرقيّة والكنيسة الرومانيّة الجامعة الّا ان ما كان يجده من المقاومة في الاعيان وفي قسم من الاكليرس كان يثبّط عزمه ويعرقل مساعيه فسرّ بما رآه في يوحنّا من الاستعداد لخدمة الاتحاد. ومثله بندكتس ثوينا اسقف ثلنا الذي عرف يوحنّا الشاب وقدّر قدره

وكذلك كان يوحنّا يتردّد على رئيس المدرسة اليونانيّة في ثلنا سمعيه يوحنّا روتسكي وعلى احد مشاهير اساتذتها بطرس اركوديوس وكلاهما من تلامذة اليسوعيين في رومية يتلهّبان غيرة على حفظ الطقس الصقلبيّ مرتبطاً مع مركز الوحدة الرومانيّة. فكان المترجم يبحث معهما عن خلاص الكنيسة الروثنيّة من مخالب المنشقّين والخوارج وكان اوّل ما اتّفقوا عليه وجوب اصلاح الرهبانيّة الباسيليّة في بولونيّة اذ كانت بلغت اسوأ حالة من الفتور ومال كثير من ابنائها الى الشقاق. الّا انّ هذا الامر كان يحتاج الى رجل صميم ذي قداسة سامية وعزيمة قعساء. فشعر يوحنّا كونترشتس انّ الله داعيه الى هذه المهمّة وعرض فكره على مرشديه وعلى المطرونوليت فعرفوا انّ هناك اصبع الله. ومن ساعته عزم على الزهد في الدنيا وما كان يتنظره فيها من الشرف والجاه العالمي وعدل الى الترهّب بعد ان قرأ الوداع على

صاحب المحلّ التجاري الذي اجتهد عبثاً في إبقائهِ عندهُ ووعدهُ بثروة عظيمة

الراهب والمجاهد

تجرَّد يوحنَّا عن الازياء العالميَّة ودخل في دير الثالوث الاقدس القريب من قلنـا الذي كان مسكناً للرهبان الباسيليين فألبسهُ الثوب الرهباني المطرانيت برسيـه وبدل اسمهُ يوحنا بيوشافاط فوجد الراهب الجديد في ديرهِ عدداً قليلاً من الرهبـان يعيشون بالبـذخ والهناء لا يفرقهم عن اهل العـالم غير اسكيمهم وكان رئيسهم الارشمندريت صموئيل سيانكسيلو قليل الاهتمام برهبانه يُبطن البغض للاتحاد مع الكنيسة الرومانيَّة

فأحسَّ يوشافاط بما يتهدَّدهُ من المشقَّات والاضطهـاد. فلم يتوقَّف على اتمـام مقصودهِ فاختار لهُ في الـدير غرفة صغيرة بل كوخاً حقيراً حبس نفسهُ فيـهِ ملازماً مناجاة الله والـدرس وضروب التقشف فـلبس تحت الاسكيم مسحاً خشناً وتمنطق بسلسلةٍ حديديَّة مشوكة وجعل مثالـهُ القديس باسيليوس منشئ رهبـانيَّتهِ ليحفظ بكلّ دقَّة قانونهُ الصارم. وكان في حضورهِ الفرائض البيعيَّة اشبه بملاك منهُ ببشر

فما لبث ان انتشر خبرهُ في المدينة فكان القوم يطلبون زيارتهُ فلا يواجه منهم احداً الَّا دعاهُ الى الله وحبَّب اليـهِ الفضيلة ووصف لـهُ فضل الانضمام الى الوحدة والطاعة لنائب المسيح وخلَف هامة الرسل. فكان لكـلامهِ احسن وقع في القلوب وردَّ كثيرين الى حجر الكنيسة

ثم شعر بما تُسبِّبهُ لهُ هذه الزيارات من تشتيت الفكر فانتقـل الى حجرة اخرى في طرف الدير لزم فيها العزلة التامَّة وكان لا يقبل الاجتماع الَّا بصديقهِ جان روتسكي يفاوضهُ في كلّ امور نفسهِ ويطلب معهُ دواء لداء وطنهِ. واخذ كذلك ينكبُّ على درس اللاهوت استعداداً للدرجة الكهنوتيَّة فاتَّخذ لهُ معلماً الاب فريسي اليسوعي استاذه السابق فلقَّنهُ ذاك العالم تاماً فبرع فيهِ. على انَّ صيت يوشافـاط في خلوتهِ المذكورة اتَّسع نطاقاً وزاد اريجُ فضيلتهِ انتشاراً لاسيما بعد ان تسرَّبت الى مسكنهِ فتاةٌ خليعة حاولت بان تجتذبهُ الى الاثم فردَّها يوشافاط خاسئةً خجلةً

قضى القديس سنتين في حبستهِ متحايداً عن الرهبـان المتشقين لا يجتمع بهم الَّا

في تلاوة الصلوات الطقسيَّة والفرائض الكنسيَّة وهو يطلب منهُ تعالى ان يلهمهُ طريقة لإصلاح ذلك الدير. فأصغى الله الى دعوته بان جذب صديقهُ يوحنَّا روتسكي الى التَّرهُّب في ديرهِ وألبسهُ السِّيذ يوسبه الثوب الرهباني باحتفال عظيم في كنيسة الثالوث الاقدس في ٦ ايلول ١٦٠٧ ثمَّ نذر في غرَّة السنة ١٦٠٨ ودعا اسمهُ يوسف. فكان لترهُّبهِ شأن عظيم في كلّ انحاء المدينة لما يعرفونهُ من عظم ثروته وثاقب فهمهِ ووفرة علومهِ. أمَّا يوشافاط فتهلَّل طرباً اذ وجد فيهِ خير عضدٍ في تحقيق نيَّاتهِ البارَّة بخلاف الارشمندريت والرهبان مشايعيهِ فانَّهم تحققوا بان نجمهم قد أفل بطلوع هذا البدر التامّ الذي يفوقهم بعلمهِ وفضيلتهِ ونفوذهِ لدى اهل المملكة

وما لبث بعض شبَّان المدينة ان طلبوا التَّرهُّب على مثال يوشافاط ويوسف روتسكي وشاركوهما في سيرتهما الفاضلة فبلغ عددهم اثني عشر حتى ضاقت بهم قلالي الدير فضلاً عن أن قسماً منها كان قد استولى عليهِ الخراب بتهاون رئيسهِ ورهبانهِ القدماء. فتولَّى يوسف روتسكي ترميمها بمالهِ الخاص وبحسنات جمها من معارفهِ واعيان المدينة واسقفها الفاضل الذي سُرَّ بهذه النهضة اي سرور. وبعد زمن قليل أصبح الدير عامراً زاهياً بكثرة الرهبان تقام في كنيستهِ رتب البيعة الشرقيَّة بزيد البهاء والرونق والشعب يتقاطر الى حضورها بكل شوقٍ ورغبةٍ. ثم سيم روتسكي كاهناً فضاعف نشاطهُ في خدمة اخوتهِ وممارسة كل الفضائل الرهبانيَّة. فكان مع يوشافاط كفرسي رهان يتسابقان في مباشرة كل اعمال الخير وبقداسة سيرتهما المفردة والاجتماعيَّة على مثال قدماء النسَّاك فكان الشعب يباركهما ويشكر الله على ما يعاينهُ من صلاحهما

فلمَّا رأى المشاقُّون ان حزبهم آل الى الاضمحلال بسبب هؤلاء المصلحين تنمَّروا غيظاً وتآمروا مع الارشمندريت صموئيل ومشايعيهِ على يوشافاط وروتسكي وطلبتهم لينفوهم من الدير فيجعلوهُ في قبضة حزبهم. فعهدَ الرئيس الى يوسف روتسكي بمهمَّة في مدينة بعيدة وحاول في غيبتهِ ان يجتذب الى حزبهِ المخالف الراهب يوشافاط فدعوهُ الى مكان منفرد وأقفلوا وراءهُ الباب وألحُّوا عليهِ بان ينضمَّ الى حزبهم فينبذ الطاعة للكرسيّ الروماني فأبى القديس كلّ الإباء فاهانوهُ ولطمهُ الرئيس على وجههِ فاحتمل بصبر كل الاهانات اقتداء بالمصلوب ولم يفلت من يدهم

الا يوعده لهم انهُ سيفحص الامر أمام الله ويجيبهم حسب إلهامهِ تعالى . وكان في اثناء ذلك خبر اهانات يوشافاط تمى الى روتسكي فعاد مسرعاً الى الدير ثمَّ بلَّغ المطرانبوليت يوسيه ما فعلهُ الارشمندريت فعزلهُ من رئاستهِ واقام يوسف روتسكي في مكانهِ

فحدِّث ولا حرج بما اثار هذا العمل العادل في قلب صوئيل من الشحناء والبغض فاجتمع بحازبيهِ وتامروا على الروثانيين الكاثوليك وقبل كلّ على زعمائهم اي المطرانبوليت يوسيه والارشمندريت روتسكي والشمَّاس يوشافاط وسيَّروا الى كلّ الانحاء انصارهم ليهيجوا الشعب على الدعاة بالاتحاد مع رومية ونشروا الالوف والربوات من النشرات الكاذبة في حقّهم فصوَّروهم كاعداء وطنهم وجحدة دينهم ورشوا بالدراهم الرنَّان كثيرين من القُضاة والمندوبين الى المجلس الملكي الاعلى وعلى الاخص بعثوا الحقد في قلوب الكهنة العلمانيين فاصبحت البلاد كبركان من النار او كأتون متَّقد فحار عمَّال الدولة في امرهم وتخوَّفوا من حرب اهليَّة تقع بين ابناء الوطن . فسعى الملك سجسمند الثالث بتخميد اظامهم واطفاء جمرتهم فلم يزيدوا الَّا شراسةً واغتصبوا كنائس المتَّحدين وكادوا يفوزون بكل رغائبهم لولا ان المطرانبوليت يوسيه لم يدَّخر شيئاً من قواهُ للدفاع عن قومهِ وكشف حقائق الامور التي شوَّهها باراجيفهم اصحاب الاغراض . فما كان منهم الَّا ان دسُّوا رجلاً من ذويهم ليغتال المطرانبوليت ويقتلهُ فانخدع بقولهم وفتك برئيس الاساقفة وهو راجع الى كنيستهِ فكاد يعدمهُ الحياة لولا نعمة من الله الذي نجَّاهُ من سيف ذاك الشقي . وانَّما قطع لهُ بعض اصابعهِ وجرحهُ جرحاً خفيفاً في عنقهِ فوقع مغشيًّا عليهِ ولمَّا افاق غفر لقاتلهِ وقدَّم لله دمهُ لخلاص رعيَّتهِ

فوقعت هذه الجناية اسوأ وقع في قلوب البولونيين حتى المعاندين المطرانبوليت والحزب الكاثوليكي وعرف الجميع من حرَّك الى هذا الاثم الفظيع يد ذلك الشرير فكُبِّل الجاني بالاغلال وحكم عليهِ الملك بالإعدام فاسرع الى حبسهِ يوشافاط ليستتيبهُ فباء الرجل بالثبور وبات نادماً على جريمتهِ . واندرأ الشعب كبيرهم وصغيرهم على المُصلحين اذ عرفوا براءتهم وخباثة اعدائهم فعاد السلام الى نصابهِ واستولى الروثانيُّون الكاثوليك على كنائسهم دون مخالف

الكاهن ومختطف النفوس

رأى المطرو بوليت بوسيه انَّ السنين قد اثقلت كاهلهُ فاختار برخصة الحبر الروماني يوسف روتسكي نائباً عنهُ وابقاهُ على رئاسة دير الثالوث الاقدس لتهذيب رهبانهِ ثمَّ استدعى رفيقهُ يوشافاط فرسمهُ كاهناً ليقوم في مدينة ڤلنا باعمال الوظيفة الكهنوتية. فما نال المذكور هذه الرتبة حتى كلَّف نفسهُ قضاء كلّ واجباتها

وكان الكهنوت في ذلك الحين قد ذلَّ وحقر في اعين الشعب لان الكهنة كانوا اميّين مرتبطين بالزواج لا يفكرون في شيء الّا في معاشهم وعيالهم فكانوا لا يقدّمون الذبيحة الّا نادرًا ولا يهتمّون بتوزيع الاسرار الّا لمن يدفع لهم اجرة عملهم. امَّا الوعظ وارشاد الشعب فيجهلونهما تماماً

فنصب يوشافاط نفسهُ مثالاً لكاهن الله واخذ يقدّم الذبيحة الالهية كلّ صباح بتقوى عجيبة كانت تؤثّر في نفوس الحضور وقد شهدوا غير مرّة انهم رأوا فوق كاسهِ صورة الطفل الالهي مجسّماً وعن يمينهِ ملاكاً يخدمهُ. فذاع في كلّ المدينة ذكر قداستهِ واقبل اليهِ الجمهور يلتمسون الاسرار المهملة قبلهم. فكان يوشافاط يجلس الساعات الطوال في منبر التوبة بلا ملل ولا سأم. وما كان ينتظر فقط الخطأة ليأتوا اليهِ بل كان يذهب اليهم فلا يخرج من عندهم الّا وقد صالحهم مع ربّهم بالتوبة النصوح. وكان اذا وهب لهُ احدهم هبةً ما اجرةً على تعبهِ رفضها رفضاً باتًّا بل كثيرًا ما كان يُسعف الفقراء بما لديهِ من المال فأطنب الجميع على تجرُّدهِ ونزاهتهِ

وكان يوشافاط لا يدع فرصةً لتعليم الشعب الحقائق الدينيَّة فكان يخطب فيهم باللغة الصقلبيَّة ببلاغة تحيك في الصدور وتُسيل الدموع حتى انَّ كثيرين اكّدوا بعد موتهِ انَّ الروح الالهي كان ينطق بلسانهِ فلا يستطيع سامعهُ الّا الرضوخ لكلامهِ. وربَّما كان يأتيهِ اعداء الكنيسة من مشاقين وبروتستانت ليجادلوهُ فكان يردّ بكل توَدة وبالحجج القاطعة على اعتراضاتهم فربح كثيرين منهم للوحدة الرومانيَّة ومن ثمَّ دعاهُ الكاثوليك رسول الصقالبة امَّا اعداؤهم فلقبوهُ بمختطف النفوس. ومتى ارتدُّوا على يدهِ اغناطيوس بطريرك موسكو الروسي كان نفاهُ منها ارباب الثورة سنة ١٦١٠ فرحّب بهِ ملك پولونية فطلب ان يسكن في دير الثالوث الاقدس حيث كان

يوشافاط مقيماً ولما آنسهُ واختبر براعتهُ أعلن باغرائهِ تعلقهُ بالكرسي الرسولي ورد بثاثهِ عدداً غفيراً من اهل الشقاق الى الاتحاد مع رومية. ومات بعد زمن قليل ودُفن بكل اكرام في دير الثالوث

وكذلك أثار يوشافاط عقل شابٍ آخر يوناني الاصل من سلالة ملوك الروم المسمّى عثنوئيل قنطقوزان فعرف الحقّ وتعلّق بيوشافاط مرشدهِ الى موتهِ

الارشمندريت

وفي اوائل سنة ١٦١٣ فكّر مطرانيوليت كياف هيباس بوسيه في ان ينشر الاصلاح الرهباني في مدن غير ثلثا وكان بعض امراء بولونية الصقالبة المرتدّين الى الكثلكة يرغبون في ذلك ويقدّمون الماكن اللائقة لهذه الغاية فامر المطرانيوليت الجديد صديقهُ يوشافاط ان يقوم بهذه المهنة. فاجاب الى امر رئيسهِ وثبّت اولًا دعائم الاصلاح في دير للراهبات في ثلثا ثم سار الى انحاء ليتوانية في معاملة نوقوغوردك فشيّد ديرًا قريباً من بيتٍ صار بعد زمن قليل بيئة ومعقلًا للاصلاح وكان بقرب الدير كنيسة صغيرة عريقة في القدم استولى عليها الخراب فيها صورة عجائبيّة للعذراء فرمّمها القديس ووسّعها واقام فيها مذبحًا جليلًا للصورة فجدّد ذكرها في تلك الاصقاع واخذ عبّاد البتول يكرمونها وينالون نعمها كما كانت في سالف الزمان اذ يقصدها ملوك بولونية ويستشفعون بها. وقد ارسل البابا بندكتوس الثالث عشر اكليلًا من الذهب توّج به هامتها

وفي تلك الاثناء استأثر الله بعبدهِ هيباس بوسيه رئيس اساقفة كياف في رائحة القداسة بعد ان جاهد خير جهاد في خدمة الكنيسة الصقلبيّة المتّحدة فانتدب الكرسي الرسولي نائبهُ يوسف روتسكي ليرأس في بولونية ذوي الطقس الشرقي الكاثوليكي فكان خير خلف لخير سلف. فوجّه الى يوشافاط ورفعهُ الى رتبة الارشمندريت ليخلفهُ في دير الثالوث في ثلثا. فعاد اليهِ سنة ١٦١٤ وترأس على رهبانهِ الذين كان بلغ عددهم الستين بعد الاصلاح

قضى يوشافاط اربع سنين في رئاستهِ على دير الثالوث في ثلثا بصفة ارشمندريت مارس فيها كل اعمال البرّ فكان بين تلاميذه على مثال السيد المسيح بين رسلهِ

كصغيرهم وخادمهم يحثهم بمثله اكثر منهُ باوامره يهتم بكل واحد منهم اهتمام الاب بابنائه ولا يخص نفسهُ الّا باحقر الملابس واشظف العيش ممتنعاً عن اكل اللحم وشرب الخمر ومداوماً على لبس المسوح وقمع جسمهِ بالجالد والنوم على الحضيض واحياء الليل بالصلاة . وكان مع فقره لا يردّ مسكيناً حتى فرغ الدير غير مرّة من المؤونة فكان القديس بصلاته ينال من الله بوسائط عجيبة ما يقيت بهِ رهبانهُ فتأتيهم الحسنات والمأكولات بغتةً من حيث لا يدرون . وقد اخبر اصحاب البرّ انّ القديس كان يتراءى لهم في المنام ويعلمهم بضيق رهبانهِ فيسرعون الى مساعدتهم

ومن غريب ما حدث في أيام ارشيمندريّة يوشافاط انّ الابالسة خزاهم الله حاولوا إرهابهُ كما فعلوا قبلهُ بالقديس انطونيوس الكبير فكانوا يظهرون لهُ باشكال مخيفة فيبدّد القديس شملهم باشارة الصليب . ودخلوا الكنيسة ليلةً بجلبة عظيمة وصراخ وتجاديف فظيعة على هيئة مسوخ وحيوانات ضارية يسحبون وراءهم شبحاً هائلاً ملتهباً وزعزعوا جدران الدير كانهُ زلزال حدث فارتعدت فرائص الرهبان ولم يمكنهم ان يكحلوا عينهم بالرقاد حتى توارى الابالسة عند الصباح وعادوا الى فعلهم هذا مدّة أيام متوالية فاختار القديس في امرهم لكنّهُ اخذ معهُ احد رهبانهِ واحيا الليل في الصلاة والسجود للقربان حتى اذا كان منتصف الليل رأى ذاك الجرث الجهنّمي يكرّر ضجّتهُ وتهاويلهُ السابقة ويتهدّدهُ ورفيقهُ بالموت الّا ان القديس لم يُرهبهُ هذا المشهد المخيف بل اخذ القربان وجرى بهِ نحوهم فزاد صراخهم وعظم تهويلهم وفرّوا هاربين امامهُ حتى خرجوا من الكنيسة واندفعوا الى المقبرة ورموا في حفرة هناك الشبح الذي كان معهم وتوارَوا عن العيان . ففي صباح النهار سأل القديس من هو المقبور هناك فقيل لهُ انهُ رجل اثيم مات بلا توبة فنُقلت رفاتهُ الى مكان بعيد ورجع الهدوء الى الدير واصحابهِ

وفي تلك الحقبة تعدّدت اديرة الباسيليين المُصلحة بفضل عدّة رهبان عريقين في الصلاح والروح الرهباني خرجوا من دير ڤاتا وأسّسوا اديرة في انحاء البلاد فكان مثلهم يحيي الدين والتقى حيثما يحلّون ويدعون الجماهير الى الوحدة مع امّ الكنائس البيعة الرومانيّة . وكان اليسوعيّون عادةً يتولّون تهذيب الناشئة الرهبانيّة الباسيليّة ثم يرسلونهم الى انشاء اديرة جديدة بموجب قوانين الاصلاح التي اتّفق سنة ١٦١٧ على

وضعها المطرو بوليت روتسكي ويوشافاط بمساعدة بعض المثلين الكرسي الرسولي

يوشافاط رئيس اساقفة پولوسك (١٦١٨—١٦٢٣)

كانت پولوسك احدى حواضر بلاد ليتوانية الكبرى فرأى المطرو بوليت روتسكي انها في حاجة الى راع غيور يبث فيها روح الدين ويطفئ جمرة المتمردين على السلطة الكنسية باغراء البطريرك القسطنطيني ومناصريه فلم يجد رجلا احق برتبة الاسقفية فيها من يوشافاط فعرض الامر عليه الا ان القديس لتواضعه لم يرض بذلك الشرف حتى احتاج رئيسه ان يأمره بحكم الطاعة ليغلبه على إبائه فلم ير بدًا من الخضوع لمشيئة الله (٩ ك ٢ ١٦١٨)

مَن لنا ان نصف قديسنا في مقامه الجديد فانه وجد ابرشيته في حالة يُرثى لها لتهاون رُعاتها السابقين الذين اهملوا تدبيرها فدخل الذئاب في الحظيرة وافسدوا خرافها فاستنحل فيهم الشقاق والهرطقة. على ان سمعة يوشافاط واخبار اعماله كانت ذاعت في پولوسك فهيأت القلوب لاستقباله فتسابق الاهلون على اختلاف نزعاتهم لاكرامه وقد اجتهد عند دخوله بان يطيب قلوب الصقالبة الوطنيين بأبهة الطقوس الشرقية وبذلك افحم اعداء الكثلكة الزاعمين بانه أتى ليزيل تلك الطقوس الجليلة. وسعى بتحسين الكنيسة الكاتدرائية وجدَّد ايقونسطاسيها فأثر ذلك تأثيرًا حسنًا في ابناء ابرشيته

وكان اوَّل ما صرف اليه همته ان استدعى الرهبان الباسيليين من ذوي الاصلاح ثم جمع كهنته فوضع لهم قوانين لقداسة حياتهم ولتقديس رعاياهم وجعل لهم رواتب كافية لمعاشهم فاكتسب محبتهم. وكذلك استحفى عن احوال جميع مرؤوسيه ولاسيما الفقراء فكان يسعف الجميع على قدر حاجتهم فينفق من اوقاف الكنيسة عليهم بسخاء بل كان يعتبر مالهُ الخاص كملكهم فلا يصرف منهُ الَّا الزهيد على نفسه وعلى بعض اقاربه حتى لامهُ البعض عن تقتيره فأجاب انَّ كل ما في يديه بعدُ وديعة مقدسة لا يجوز لهُ ان يعطيها لغير المعوزين والفقراء. واذ لم يجد يوماً ما يتصدَّق به على ارملة فقيرة اخذ الاموفوريون الاسقفي الثمين ورهنهُ ليساعدها

وكانت غيرتهُ على خلاص نفوس رعاياهُ اعظم منها على مساعدتهم المادية

فكان كالراعي الصالح لا يزال في طلب النعجة الضالّة الى ان يردّها الى الحظيرة . ولم يكف ان ينزل في ميدان الجدال مع البروتستانت والصقالبة المعارضين لرومية ليكحل نظرهم بنور الايمان . وقد ألّف في الصقلبيّة تآليف عديدة ليوطّد العقائد الكاثوليكيّة في اذهان المشاقين منها سفرٌ جليلٌ في رئاسة الكرسيّ الروماني وزعامة القديس بطرس وبيّن ان الكنيستين الصقلبيّة والروسيّة كانتا في اصلها متّحدتين مع رومية ونقل الى الصقلبيّة تعليم الطرباوي اليسوعي بطرس كانيزيوس

فكانت نتيجة اعماله هذه كلّها انّ الروح الكاثوليكيّة انتعشت في انحاء بلاد ليتوانية وان الروثنيين الصقالبة ادركوا ان ازدهار مأتهم متوقف على اتحادهم مع مركز الايمان في رومية

الشهيد (١٦٢٣)

هذا وانّ اعداء الكثلكة قد اصابهم باجتذاب القديس يوشافاط كثيرين من ذويهم الى الكنيسة البطرسيّة نوعٌ من الخبل والجنون فأقسموا انهم سينتقمون ولو بموته وكان اهل مدينة ڤيتبسك المجاورة لپولوسك اشدّ بغضاً له لما كان يبثّه فيهم المعادون للكثلكة من الضغينة وبالاخصّ بعض الرهبان الخوارج الذين كانوا اسرعوا واختاروا لهم اسقفاً من حزبهم يُدعى ملاتيوس سموتريسكي ليعارض الاسقف الشرعي . فعوّل القديس على زيارة تلك المدينة الواقعة في ابرشيته

فما بلغهم هذا الخبر حتى اضمروا له الشرّ وعقدوا اجتماعاً سرّياً تآمروا فيه على قتله اذا جاء الى مدينتهم . فلم تخفَ مكيدتهم على القديس بل كشفها الله له بكل ظروفها واشار اليها بخطبه الى شعب پولوسك . فسعى كثيرون من اصحابه ان يعدلوا به عن السفر الى ڤيتبسك فكان جوابه انه مستعدّ لأن يسفك دمه لخلاص شعبه وان لا شيء يقدر ان يصدّه عن زيارة رعاياه . ولما عرضوا عليه ان يأخذ فرقةً من الجند ليحرسوه في الحلّ والترحال لم يرضَ منهم احداً سوى بعض شمامسته للخدمة الدينيّة وقبل سفره عيّن في الكنيسة مكاناً لقبره لعلمه بقرب موته

سافر يوشافاط الى ڤيتبسك في اواخر تشرين الاوّل متمماً في سفره كل فرائض الكنيسة كما في قلّايته . فوصل اليها وقدم الشعب لاستقباله فنزل في الدار الاسقفيّة

بجوار كنيسته وقضى خمسة عشر يوماً لا يألو جهداً في اصلاح امور رعاياه وخدمتهم في كافة الاعمال الرسولية وردّ كثيرين ممّن كان اعداؤهُ غشّوهم باكاذيبهم واجتذبهم الى الاتحاد بالكنيسة البطرسية. فزاد بذلك حنق المعادين وارسلوا احد كهنتهم صباحَ مساء ليشتم القديس في دخوله الى الكنيسة وخروجه منها ويوشافاط ساكتٌ عنهُ الّا انَّ خدمَهُ لم يطيقوا هذه الاهانات فأمسكوا ذلك الكاهن وحجزوهُ في غرفة هناك بقية سيّدهم ولمّا عرف بفعلهم امرهم ان يطلقوا سبيلهُ الّا انَّ المتآمرين جعلوا يصرخون ويصخبون ويولولون ودقّوا اجراس المدينة فتألّب الناس طالبين دم القديس واذ حاول بعض خدمه ان يدافعوا عنهُ وهو يصلي في الكنيسة ضربوهم وجرحوهم فقام القديس من صلاته وتقدّم الى اولئك القتلة وقال لهم بصوت لطيف: «لماذا تضربون اصحابي فان كنتم تطلبونني فهاءنذا امامكم». فما تمّ كلامهُ حتى وثبوا عليهِ وضربهُ واحد منهم بسيفهِ ضربة شديدة فلقت جمجمتهُ فسقط على الارض منادياً باسم يسوع. فتوالت عليهِ الضربات من كلّ جانب حتى ضرّجوهُ بالجراح وشرّهوا جسدهُ الطاهر فاسلم الروح بين ايديهم ولمّا جرّدوهُ من ثيابهِ وجدوا المسح على جسمه فسحبوهُ الى النهر وعلّقوا المسح في رجلهِ مثقلاً بحجارة ضخمة ورموهُ في مكان عميق ليرسب في قعرهِ ثمّ عادوا ونهبوا كلّ ما وجدوهُ في منزلهِ وفي الكنيسة وكان ذلك في صباح اليوم الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٦٢٣

ومنذ موت القديس صدقت فيهِ كلمة الربّ بان حبة القمح اذا ماتت اتت بثمر كثير فانَّ اهل فيتبسك بعد هذا الاثم الفظيع ادركوا قبحهُ واستولى عليهم الهلع وقد رأوا امرأةً منهم أُصيبت بالعمى التامّ لاهانتها لجسمهِ الطاهر. وظهرت في السماء سحبٌ قاتمة في وسطها عمود من النور نزل على بقايا الشهيد ورأى اهل پولوسك في الليلة التابعة لوفاة استقفهم شبه صليبٍ منير من جهة فيتبسك لم يدروا معناهُ حتى اتاهم نبأ استشهادهِ. وصرخ طفل صغير عمرهُ سنتان: قد مات الاب! قد مات الاب! ولمّا سألوهُ من هو ذاك الاب اجاب: هو باني الكنيسة. فعرفوا انهُ يريد رئيس اساقفتهم

وبقيت جثّة القديس محجوبة في النهر الى أن اتى اهل پولوسك وطلبوها فبحثوا عنها لستّة ايّام مضت على وفاة القديس واذا بنور عجيب ظهر على وجه المياه فساروا

نحوهُ فوجدوا الجسم طافياً سليماً دون فساد مع المسح والحجارة في رجلهِ وانما كان اثر الجرح في رأسهِ باقياً والدم يقطر منهُ . فنُقل بكل اكرام موشحاً باللابس الحبرية الى الكنيسة فعُرض فيها اياماً وكان اهل فيتبسك كقلائد المنة والشعب حول صليب المسيح يقرعون صدورهم ندامةً ويذرفون الدموع على ما جنتهُ ايديهم . وكان وجه القديس بهياً كانهُ راقد يبسم لمن يأتي مقبلاً رجليهِ ومنهُ تنبعث رائحة البخور

ثمَّ نُقل الجسم بتوكب عظيم الى پولوسك ودُفن كاحد اولياء الله في القبر الذي اعدَّهُ لنفسهِ قبل سفرهِ . ولما انتشر في البلاد خبر موتهِ أجمع أهلها من اصحاب واعداء ويهود على براءتهِ وسموّ فضائلهِ وانهُ مات شهيد محبَّتهِ للكنيسة الكاثوليكية . واضحى منذ ذاك قبرهُ مزارًا كان يحجُّ اليهِ المؤمنون ولاسيما المنتمين الى الطقس الشرقيّ وقد ارتدَّ بسبب استشهادهِ الوفٌ مؤلفة من اعداء الاتحاد الى الطاعة للكرسي الرسولي فكان بموتهِ ابلغ منهُ في حياتهِ . ثمَّ تعدَّدت بشفاعتهِ الآيات الباهرة والمعجزات المختلفة فارسل الحبر الاعظم لجنةً تبحث رسمياً عن سيرة القديس وفضائلهِ وعجائبهِ فتحققوا ان يوشافاط يستحقُّ ان ينظمَ في سلك الابرار فاثبتهُ البابا اوربانوس الثامن طوبويًّا في ٣ ك ١ ١٦٣٩ ثمَّ ظهرت على يدهِ كرامات جديدة منها عموميَّة ومنها خصوصيَّة تستغرق تفاصيلها مجلَّدًا ضخماً واخصُّها انهُ ثبَّت الاتحاد مع الكرسي الرسولي بين الروثانيين رغماً عن كل الاضطهادات . فاحبَّ البابا بيوس التاسع ان يُعلن باسمهِ قديساً في عيد الرسولين بطرس وبولس في ٢٩ حزيران سنة ١٨٦٧ فجرت بتلك النسبة احتفالات عظيمة لا شبيه لها على الارض حضرها نحو الخمسمائة من البطاركة والمطارنة والاساقفة والوف من الكهنة والرهبان ومئات الوف من المؤمنين وتخصَّص في كلّ سنة لذكر القديس الشهيد اليوم ١٢ من تشرين الثاني ليكرم في الكنيسة الجامعة

وفي هذه السنة اليوبيليَّة اراد الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر ان يُعلن للشرقيين عموماً وللشعوب الصقالبة خصوصاً محبَّة امهم الكنيسة الرومانيَّة فيزيد الكاثوليك منهم تشبُّثاً بها ويتحقَّق المنفصلون انهم لا تزال الامّ الرؤوف الفاتحة ذراعيها لمن خُدعوا باراجيف اعدائها فعقُّوها جاهلين لاحساناتها ولديها وحدها يجدون النعمة والخلاص